

الثورة الجزائرية في كتابات المثقفين الفرنسيين-سارتر نموذجاً-

الدكتور: سليم بتقة

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة بسكرة - الجزائر

لعب سارتر دوراً فعالاً في رفع شعارات مناهضة للاستعمار، وتأييد حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره وأحقّيته في نيل استقلاله، على مدار 8 سنوات من الحرب، حيث سجل هؤلاء المثقفون اليساريون وخاصة جون بول سارتر تضامنهم بقوة مع الثورة الجزائرية بوصفه واحداً من المثقفين الذين كان لهم إسهام كبير في النضال ضد العنف والاستعمار، بفضل أفكاره المناهضة للاستعمار، حيث ساند العديد من القضايا العادلة في العالم، إلى جانب المؤرخ بيار فيدال ناكي الذي كانت له رؤيا استقلالية شاملة لكل الدول المستعمرة وقتها، وكرس نفسه للدفاع عن القضية الجزائرية، كما كان لبعض الإعلاميين الفرنسيين دور بالغ الأهمية في خدمة الثورة الجزائرية، على غرار ريمون آرون أحد الأعلام الصحفية للامعة لجريدة "الفيغارو" والذي جر قلمه العديد من المقالات التي منحت الشرعية للثورة الجزائرية وأنصفتها.

لقد تبلور مسار الدفاع عن الثورة الجزائرية تدريجياً لدى هؤلاء المثقفين الفرنسيين ليأخذ صبغة الالتزام الجدي بالوقوف إلى جانب الشعب الجزائري وإنصافه.

ثم برز جيل آخر من الشباب المثقف الذين لم يتجاوز أعمارهم الـ20 سنة وأغلبيتهم يمثلون شريحة الطلبة، إلى جانب ظهور فئة حاملي الحقائق، وأمثلة كثيرة من النماذج المثقفة التي ساهمت في إنقاذ شرف الإنسانية من الشتات والتدهور.

النخبة الفرنسية المثقفة والثورة الجزائرية:

كان لا بد أن تتعكس الأوضاع المزرية لدى طبقة الشعب الجزائري نقمة على المحتل، وتعتبر عن مواقف الرفض، فقد أدى تفاقم الوضع إلى تشكل الوعي الوطني لدى أبناء هذا الشعب، إذ في أحضان هذه الظروف المأساوية تربي، وترعرع جيل كامل من المناضلين

الطلّاعين متشعباً بالأفكار الثورية، ومؤمناً بـ"الأيدولوجيا" الوطنية فقد منحته آماسي، والمحن صلابة، وصموداً.

هذا الرفض تبنته نخبة مثقفة في فترة الخمسينيات على اختلاف مشاربها والتي أمها ما وصلت إليه أوضاع الجزائريين، وأبانت صراحة أو ضمناً عن رفضها للممارسات الاستعمارية ضد الشعب الجزائري الأعزل من همجية، ووحشية حيث تحول الجيش الفرنسي بوسائله القمعية إلى "قسطابو" (Gestapo) يمارس "النازية الهتليرية". الكثير من هؤلاء المثقفين تعرض لنكسات بسبب محاولاتهم تنوير الرأي الفرنسي؛ منهم رجال كنائس من أمثال شاولي Chaulet سكوتو Scotto، ديكليريج، Declereg، لكن أيضاً آخرون مثل جوتون Gauton أودان Audin ماندوز Mandouze، تمسيت (اليهودي) Timsit، بيران Perrin، يفتون Yveton، لافاليت Lavlette، مين Mine، إلخ. البعض الآخر كهنري علاق Henri Alleg ندد بالتعذيب في مؤلفه "المسألة"، بينما فر آخرون بأسلحتهم وأمتعتهم، مثل ضابط الصف مايو Maillot معارضين بذلك سياسة فرنسا، وعازمين على مساعدة الثورة على تطوير إمكاناتها. يقول صاحب "معذبو الأرض"، فراننتس فانون Fanon Frantz: "في كل مرة أن تكون كرامة الإنسان وحرية قيده البحث، الجميع سيكون معنياً، الأبيض، الأسود، الأصفر."

آخرون ساندوا الشعب في مقاومته بحقائب دبلوماسية لأعضاء شبكة جونسون Janson Network، الذي أعلن بأنه لم يقم إلا بواجب الذاكرة تجاه وطنه الأصلي: فرنسا. أيضاً رينيه فوتيه René Vautier الذي قضى عشرين سنة في جبال الأوراس، حيث جعل من كاميراته شاهداً على كفاح الشعب الجزائري وأخيراً وعلى الرغم من تأخره، سارتر الذي صرح من المكسيك: "لو كنت مكانهم (أعضاء شبكة جونسون)، أعتقد أنني سأقوم بنفس العمل".

في المقابل وجدت تلك الممارسات الاستعمارية الوحشية في بعض المثقفين الفرنسيين من يبرر لها هذه الشرعية في ممارسة الفعل الإجرامي، فكانت أفكارها "الأيدولوجية" تتفق وتتطابق مع "الأيدولوجيا" الاستعمارية التي تجلت في العداوة، والعنصرية ضد حرية الشعب الجزائري. من هؤلاء المثقفين البارزين الذين أعلنوا عن أفكارهم، ولفساتهم المعادية للثورة الجزائرية، و ضد حرية الشعب الجزائري، واستقلاله "البير كامو" Albert Camu.⁽¹⁾ موقف

"كامي" من العمليات الفدائية للجبهة كان واضحا، حيث وقف ضدها فقد كتب في هذا الشأن قائلا: ((في حالة قيام إرهابي برمي قنبلة في سوق "بلكور" أين تقوم أمي بقضاء حاجياتها، ويترتب عن هذا الرمي وفاة أمي، فسأكون مسؤولا في هذه الحال للدفاع عن أمي قبل الدفاع عن العدالة وإني أحب العدالة كما أحب أمي)).

سارتر والثورة التحريرية:

بعد أن اكتسب وعيا مبكرا معاديا للاستعمار، وقف جان-بول سارتر بحزم جنبا إلى جنب مع الشعب الجزائري في كفاحه من أجل الكرامة. التزام "الأزمة الحديثة" *Temps modernes* في حرب الجزائر سبقت التزام مؤسسها ومديرها جان-بول سارتر. في ماي 1955 أفرجت المجلة عن عدد حول الصراع، فيه مقال معاد للوجود الفرنسي في الجزائر بعنوان "الجزائر ليست فرنسا". ومن هنا بدأت علاقة سارتر بالثورة الجزائرية. صودرت "الأزمة الحديثة" طوال فترة الحرب التحريرية: أربع مرات في الجزائر، مرة في فرنسا.

أما أول مقال كتبه سارتر نفسه عن الثورة الجزائرية، فكان في مارس 1956 بعنوان "الكولونيالية عبارة عن نظام"، يبرز فيه الميكانيزمات الاقتصادية والسياسية للاستعمار، ويدعو إلى محاربتة، فوضع بذلك اللبنة الأولى لجبهة ثقافية فرنسية مناهضة للاستعمار. ولم يتوقف الأمر عند هذا، بل واصل رفضه للسياسة المنتهجة لهذا "النظام" بمدخلة خلال ملتقى من أجل السلم في الجزائر، نظم بقاعة واجرام Wagram في باريس، يوم 27 يناير 1956، تحت رعاية لجنة المثقفين ضد استمرار الحرب في الجزائر.

لم يبدأ وعي سارتر المناهض للاستعمار من هذا التاريخ، ولا من الانتفاضة الجزائرية عام 1954 بل منذ عدة سنوات، فقد سبق أن قام بدعم قضية الدستور الجديد في تونس، وقضية الاستقلال بالمغرب في المؤتمر الذي شارك فيه عام 1948. في عام 1952 أجرت معه الصحيفة التابعة لفرحات عباس، جمهورية الجزائر *république Algérienne* مقابلة، وفي خريف عام 1955 قدم دعمه لحركة لجنة المثقفين ضد استمرار حرب الجزائر. وقد كان لفرنسيس جانسون Francis Janson المتعاون مع "الأزمة الحديثة"، والذي نشر مع زوجته كوليت Colette "الجزائر الخارجة عن القانون" *L'Algérie hors la loi* في ديسمبر 1955 مساهمة كبيرة أيضا في تطور وعي الفيلسوف. ومنذ هذا التاريخ عرف سارتر "تجديدا أخلاقيا"، أوصله إلى اكتشاف موضوع جديد للتاريخ، أكثر راديكالية من طبقة

البروليتارية وهم المستعمرون، وقد استفادت الثورة الجزائرية كثيرا من هذا الاكتشاف، فتحصلت على دعم جبهة ثقافية واسعة في فرنسا.

غير أن اللحظة الحقيقية للالتزام سارتر كشخص كان في عام 1956. في جانفي غي موليه Guy Mollet المسؤول السابق عن الفرع الفرنسي داخل الأمم المتحدة العالمية (سفيو)، (SFIO) يصبح رئيسا لهذه المنظمة، بعد شهرين يحصل على سلطات خاصة، سيتم توظيفها لتكثيف الحرب في الجزائر. وقد أدى تصويت الشيوعيين المؤيد لتلك الفترة بسارتر إلى التفكير في إحداث القطيعة معهم، تحققت فعليا شهر نوفمبر عندما اعترف الحزب الشيوعي الفرنسي إيجابا باجتياح الدبابات الروسية للمجر.

كتب محمد حربي في 1990 قائلا: "ومنذ هذا التاريخ عرف سارتر "تجديدا أخلاقيا"، أوصله إلى اكتشاف موضوع جديد للتاريخ، أكثر راديكالية من طبقة البروليتارية وهم المستعمرون، وقد استفادت الثورة الجزائرية كثيرا من هذا الاكتشاف، فتحصلت على دعم جبهة ثقافية واسعة في فرنسا." (2)

نشرت نصوص سارتر (3) في الفترة الواقعة ما بين مارس 1956، وأفريل 1962، وكشفت عن حرب كلامية قوية، وشجاعة نادرة في عصرنا: فقد كانت حياة الفيلسوف مهددة، وكان منزله في شارع بونابرت قد تعرض مرتين للتخريب من قبل منظمة الجيش السري (OAS). لم يكن الأمر، يتعلق عند سارتر بمجرد دعاية لمواقف مصطنعة كما نعيشها حاضرا، والتي يتوخى أصحابها فقط تحريك مبيعات كتاب أو الدفع نحو إثارة مجموعة دعوات، تلها للظهور الإعلامي.

في عام 1957 نشر الكاتب التونسي ألبير ممي كتابه "صورة المستعمر" *du Portrait colonisateur* الذي سبق "صورة المستعمر" *Portrait du colonisé*، ظهرت، أولى مضامينه في مجلتي "الأزمة الحديثة" و"فكر" *Esprit*. كما أفرد له سارتر، مقال في العدد الصادر شهر جويلية-أوت من مجلته، ثم استثمر فيما بعد كمقدمة لكتاب ألبير ميمي (4). لقد استفاد سارتر، عبر سطورها، مهتما بقضية العنف، التي سبق أن تطرق إليها شهر سابقا في مقاله: "الاستعمار، عبارة عن نظام"، مؤكدا على ما يلي: "نجاح الاجتياح بالعنف والاستغلال المفرط والقمع، مما يقتضي تجذير القهر بالحضور العسكري... لقد رفض الاستعمار، تطبيق مبادئ حقوق الإنسان على أشخاص أخضعهم قسرا، كي يبقوهم بين ثنايا

البؤس والجهل، أو كما يقول ماركس أن يظلوا "أوباشا". حيث تتدرج العنصرية مع الوقائع نفسها والمؤسسات، وكذا طبيعة التبادلات والإنتاج⁽⁵⁾

إلى جانب ثنائية المضطهد والمضطهد، الذي أورده مجمع المقالات السارتيرية. يضاف أيضا ضمنا حسب محمد حربي مفهوم آخران : المستعمر والمستعمر. سينبلور القمع الاستعماري في الآن ذاته، اقتصاديا وإيديولوجيا، بالتالي هيمنة نيمة "الإنساني" على عمق الكتابات التي خصصها سارتر لحرب الجزائر. يأخذ هذا العنف مناحي طغيانية مختلفة، استحضرها الفيلسوف ثانية، غداة توقيع اتفاقيات "إيفيان" Evian شهر أفريل 1962. لذلك نقرأ في مقاله "المشاة النائمون" *Les Somnambules* تلك المرارة، بل أيضا غضبه الشديد: ((ينبغي القول، أننا نلاحق وهم السعادة: فمنذ سبع سنوات، تجسد فرنسا صورة كلب مسعور، يجر قدرا بذيله، ويزداد هلعا يوما بعد يوم، نتيجة ما يحدثه بذاته من صخب وضجيج. لا أحد، ينكر اليوم، أننا توخينا تخريب وتجويع وتقتيل شعب مغلوب على أمره، كي نركعه، لكنه بقي صامدا. لكن بأي ثمن ؟)).⁽⁶⁾

تتأتى فكرة حالة "اللا-إنسانية" بالنسبة لسارتر، من أن المستعمرين "بقوا محكومين بواسطة نظام قمعي، لا يختلف عن التعامل مع الحيوان".⁽⁷⁾ يترجم عمليا سواء بإنكار القانون والثقافة، وكل ما يتعارض مع مبدأ "حقوق الإنسان" التي ترددها دولة فرنسا، بلا توقف. هناك، نص مشهور يركز خاصة على هذه التيمات المتعلقة ب "العنف" و"إلغاء الصفة الإنسانية": يتعلق الأمر، بالافتتاحية التي ديج بها سارتر سنة 1961، كتاب فرانتز فانون Frantz Fanon: "المعذبون في الأرض" *les damnés de la terre* طبيب نفساني، من جزر المارتنيك، عانق بشكل سريع جدا النضال من أجل استقلال الجزائر، وصار عضوا في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية GPRA التي تشرف على الجهاد السري. فانون، اشتهر قبل ذلك، بعنوانين مثل: "جلد أسود، أفتحة بيضاء" *Peau Noir, masques blancs* (1952)، "السنة الخامسة من الثورة الجزائرية" *L'An 5 de la révolution algérienne* (1959). اللقاء الفكري والأخوي بين الرجلين وتطور فيما بعد إلى صداقة بينهما. طبع المسار السارتيري.

"معذبو الأرض" دراسة نموذجية عن المقاومة ضد الاستعمار، وصف بدقة آليات العنف التي وضعها الاستعمار لإخضاع الشعب المضطهد. في المقدمة يؤيد سارتر دون

تحفظ أطروحات فانون، ويعيد صياغتها بأسلوبه المتميز: ((...)) أعطى الأمر لإبعاد السكان من الأراضي الملحقة لتبرير معاملة الكولون مجرماً لهم كحيوانات. العنف الاستعماري لا يهدف فقط إلى إذلال هؤلاء الرجال المضطهدين وإنما يسعى إلى جعلهم يتجردون من كل خصوصيات البشر. لا شيء يمكن أن يحول دون تصفية تقاليدهم واستبدال لغاتنا بلغاتهم، وتدمير ثقافتهم، دون أن نعطيهم ثقافتنا. إننا نعمل على جعلهم حيوانات ونرهبهم بالإجهاد⁽⁸⁾. مصطلح "الحيوان" هذا سوف يستحضر أيضاً في موضوع التعذيب الممارس من طرف الجلادين. يقول سارتر: ((الأمر العاجل، إذا بقي هناك وقت إذلال ضحاياهم، واقتلاع الكبرياء من قلوبهم، ثم الانحدار بهم إلى مصاف الحيوان)).

موقف سارتر من التعذيب:

لم تقتصر حرب الإبادة في الجزائر على التقتيل والمجازر الجماعية والفردية بل وسعتها السلطات الفرنسية من سياسة القمع والتكثيف إلى الاستعانة بوسائل أكثر وحشية فقد طبقت أساليب التعذيب بأنواعه خاصة بعد تولي "غي موللي" رئاسة الحكومة في 1946 وإقراره لقانون "السلطات المطلقة" الذي استغله الجيش أيما استغلال خاصة ماسو Massu وأوساريس Aoussarets جرائم التعذيب لا تعد ولا تحصى ولكننا اقترحنا مايلي:

من أخطر الوسائل التي طبقتها القوات الفرنسية في الجزائر أثناء الثورة التحريرية لجوئها إلى التعذيب وقد اعترف بذلك قادة جيش الاحتلال والمجندون في القوات الفرنسية والنخبة الفرنسية بممارسة التعذيب بمختلف أشكاله وأنواعه وألوانه وأنه لم يكن محصوراً في أفراد جيش التحرير المقبوض عليهم بل يشمل جميع أعمار وفتات الجزائريين، والمهم أن يكون جزائرياً.

المقال الأول خصه سارتر كلياً لفضح عمليات التعذيب "أنتم رائعون" نشر في ماي 1957 في الأزمنة الحديثة. في البداية عنوانه "مؤسسة الفساد"، حيث طلبت نشره جريدة (لوموند) ثم رفضته واعتبرته عنيفاً جداً. مجموعة من القصص لمجندين جدد معظمهم كهنة تم نشرها قبل شهرين.

المقدمة جاءت بعنوان "مجندون يشهدون" وحملت خاصة توقيع جان ماري بول دومناك J.M.Domenach بول ريكور Paul Ricœur، روني ريمون René Raimond. في هذه المقدمة سارتر نائر ضد تأمر الإعلام والشعب الفرنسي، وهم القادرون على تقديم (المساعدة) باسم النزعة الإنسانية، كما في حصة إذاعية لجون نوهان John Nohain "أنتم

رائعون" حيث ندد سارتر فيها بفضاعة التعذيب، بل وغيره من أشكال العنف الممارس في الجزائر "لهم قاسم مشترك هو كشف هذه الآفة، الممارسة الوحشية المنظمة للعنف المطلق، النهب والاعتصاب، العمليات الانتقامية الممارسة ضد السكان المدنيين التصفيات الجماعية، واللجوء إلى التعذيب لانتزاع الاعترافات أو المعلومات).⁽⁹⁾

الصورة "الآفة" التي تدخل في الحقل السميائي للمرض، تطبع هذه النصوص السارترية -مرة أخرى- ستوظف بعد سنة في نقد كتاب هنري علاق Henri Alleg "السؤال" *La Question*. هذا العمل الذي صدر في فيفري 1958 عن دار (Minuit)، سيخصص له سارتر في مارس عددا خاصا في "الأزمة الحديثة". علاق ناشط في الحزب الشيوعي الجزائري، مدير الجزائر جمهورية من عام 1950 حتى عام منعه سبتمبر 1955، أوقف علاق من طرف المظليين في جوان 1957، وتعرض للتعذيب في مركز الفرز بالأبيار. يعتبر "السؤال" أول وثيقة من هذا النوع استطاعت أن تغزو جمهورا واسعا، لذلك تم مصادرته في 28 مارس 1958. كتب اندريه مارلو A.Marlaux روجيه مارتين R.Martin فرانسوا مورياك F.Mauriac وسارتر، رسالة رسمية إلى رئيس الجمهورية، وقد رفض ألبير كامي الانضمام اليهم. في 30 ماي يشترك سارتر مع زوجة هنري علاق وفرانسوا مورياك لوران شوارتز Laurent Schwartz، في مؤتمر صحفي حول اختراق حقوق الإنسان في الجزائر.

في السادس من مارس وعند صدور "السؤال" 1958 كتب سارتر في الاكسبريس Express مقالا بعنوان "الانتصار" Une Victoire وتسبب في مصادرة الأسبوعية التي كان يسيرها جان جاك سرفان شرايبر Jean-Jacques Servan-Schreiber كتب فيها: ((أتعلمون ماذا يقال أحيانا لتبرير جرائم الجلادين: ينبغي إيجاد الحل بتعذيب الإنسان إذا كانت اعترافاته ستسمح بإنقاذ مئات الأرواح. خدعة جميلة، علاق مثل أودان لم يكن إرهابيا، والدليل على ذلك، أنه اتهم "بالمساس بالأمن القومي، وإعادة إحياء جمعية منحلة". هل من المعقول لإنقاذ أرواح أن يلجأ إلى حرق ثدييه وشعر عانته؟ لا لقد أرادوا معرفة عنوان صديقه الذي آواه، ولو أنه أخبرهم لكانوا قد وضعوا شيوعيا آخر وراء القضبان. هذا كل شيء، ثم هم يعتقلون عشوائيا، كل مسلم معرض للمساءلة، أغلبية المعتقلين لا يقولون شيئا، لأنهم ليس لديهم ما يقولونه)).⁽¹⁰⁾ يستأنف المثقف استعارته للمرض المعدي: ((من جهة أخرى الغرغرينة

تمتد لقد عبرت البحر، انتشر الخبر بأن بعض سجون العاصمة ليست بمنأى عن هذه القضية)).⁽¹¹⁾

يرى سارتر بأن الضحية التي تتعرض للتعذيب والاستنطاق ينبغي أن تظهر الشجاعة والإرادة فوق ذلك الذي يسمى "الإنسانية"، حاثاً إياهم على مقاومة تلك الأساليب والتي لا تختلف في وحشيتها عن تلك التي كان يمارسها "القسطابو" Gestapo أثناء الحرب العالمية الثانية. يقول سارتر: "أما في التعذيب، هذه المباراة الغربية، فإنما يقيس الجلاد نفسه بالضحية من أجل صفة الإنسان، وكل شيء يحدث كما لو أنهما لا ينتميان معا إلى الجنس البشري... يجب على خيانتها أن تحطمها وتخلص المجتمع منها إلى الأبد وأن من يستسلم للاستجواب لم يكن يراد فقط قسره على الكلام وإنما هو قد دفع إلى الأبد بصفة كونه: أقل من إنسان".⁽¹²⁾

وعى سارتر بواقع التعذيب في الجزائر تحقق تدريجياً كبقية المثقفين بعد قيام جلاو ماسو Massu بممارسة لعبتهم المفضلة ألا وهي التعذيب على هنري علاق. وهذا يعني أن سارتر لم تكن له سابق معرفة بمسألة التعذيب في الجزائر، لأنه بكل بساطة لم ير الضحايا، لكن كمتقف يجب أن يلتزم ويقبل هذه "المسؤولية الاجتماعية التاريخية" التي جعلته يوضح قائلاً: ((...إنهم يعقلون هنا، وهناك بالمصادفة كل مسلم قابل للاستجواب طوعاً: إلا إذا قدموا شهادة كاذبة أو اتهموا أنفسهم مجاناً بجريمة ما تخلصنا من العذاب. أما أولئك الذين يستطيعون أن يتكلموا، فمن المعلوم أنهم يصمتون، كلهم أو جلهم، فلا أودين ولا علاق ولا غاروج قد فتحوا أفواههم. ولا شك أن جلاوي الأبيار أوسع معرفة هنا في هذا الصدد)).⁽¹³⁾

في شهر سبتمبر 1958، وبخصوص موضوع استفتاء تقرر إجراؤه خلال الشهر الموالي، حول دستور الجمهورية الخامسة. كتب سارتر: ((إن الجسم الانتخابي، منظومة غير قابلة للتجزئة. هكذا، إذا مسه الفساد، امتد في اللحظة ذاتها إلى كل الناخبين)).⁽¹⁴⁾ نفس الصورة، وظفت قبل ذلك، سنة 1955 من قبل الكاتب "إيمي سيزير" Aimé Césaire المنحدر من جزر الأنتيل، في خطابه حول الاستعمار: ((ينبغي أولاً، أن ندرس، كيف يؤدي الفعل الاستعماري إلى قتل كل حس حضاري لدى المستعمر، ... يهيمن ارتداد كوني، ويتوطد انحلال ثم تنتشر البؤرة المتعفنة)).⁽¹⁵⁾

هذه الصورة ستأخذ أشكالا أخرى مثل هذا المقطع من مقدمة "معذبو الأرض" أين يعنف سارتر الفرنسيين: ((ليس طيبا، رفاقي المواطنين، أنتم الذين تعرفون كل هذه الجرائم المرتكبة باسمنا، ليس طيبا حقا لا تتفوهون بكلمة لأحد، حتى لأنفسكم خوفا من أن تحكموا على أنفسكم. في البداية، كنتم تجهلون أريد أن أصدق هذا، ثم شككتم في الأمر، والآن تعرفون، ولكنكم صامتون دائما. ثماني سنوات من الصمت، إنه مدعاة للتردي. (...)) يكفي أن يلتقي اثنان فقط من الفرنسيين حتى تكون هناك جثة بينهما. وعندما أقول: واحد... كل فرنسا قديما، كانت اسما لبلد، علينا أن نحرص حتى لا يكون في عام 1961 اسم لداء العصاب)).⁽¹⁶⁾

منذ مقاله الأول سنة 1956، ركز سارتر على صمت الفرنسيين تجاه الفظاعة، متوخيا إيفاهمهم أن الاستعمار يقتضي منهم تحمل مسؤوليتهم الجماعية. لقد شدد، على أن الهيمنة الاستعمارية، تناهض جميع القيم التي تدعي فرنسا تبنيها: ((أي صخب: حرية، مساواة، أخوة، حب، شرف، وطن، من يدري؟ بيد أن هذا لم يمنعنا في الوقت ذاته، كي نفعل خطابات عنصرية مثل: قدر، زنجي، يهودي حقير، جرد وسخ))⁽¹⁷⁾ لكن، الأكثر سوءا في الواقع، ربط ذلك بسياق الفاشية: ((هي فضيحة لنا. الاستعمار، يسخر من قوانيننا ويصورها بطريقة هزلية، ينقل إلينا منطق عدوى عنصريته... ويلزم شبابنا، كي يموتوا على الرغم منهم، تحقيقا للمبادئ النازية التي ناضلنا ضدها منذ عشر سنوات. يحاول الاستعمار، الدفاع عن نفسه، بأن يبعث فاشية لدينا في فرنسا. إذن، اكتفينا نحن الفرنسيون بمساعدة هؤلاء الشباب على الموت، ليس فقط داخل الجزائر، لكن في كل مكان تواجد فيه الاستعمار. إن، الشيء الوحيد الذي بإمكاننا ويجب القيام به . الجوهرى حاليا. هو الكفاح إلى جانب الشباب، كي نخلص في الآن ذاته الجزائريين والفرنسيين من الاستبداد الاستعماري)).⁽¹⁸⁾

من الصمت إلى التواطؤ ليس هناك سوى خطوة، هذا ما يقوله سارتر في "أنتم رائعون" *Vous êtes formidables*. غضبه يقوده إلى تذكر تاريخ له علاقة قريبة تلك المتعلقة بالحرب العالمية الثانية: ((براءة كاذبة، هروب، عقيدة سيئة عزلة، صمت تواطؤ مرفوض، هذا الذي أطلقنا عليه، عام 1945 المسؤولية الجماعية. لم يكن في ذلك الوقت السكان الألمان يزعمون أنهم يجهلون المعسكرات. كانوا يعلمون كل شيء! "كنا نعرف كل شيء لقد كنا على حق، إنهم يعلمون كل شيء، واليوم فقط نستطيع أن نفهم ذلك: لأنه نحن

أيضا نعرف كل شيء. (...) هل نجرؤ مرة أخرى على إدانتهم؟ هل نجرؤ على أن نسامح؟⁽¹⁹⁾

هذه المشابهة ليست الوحيدة التي قام بها سارتر. إنها تدخل في الخطاب الصحفي الذي اعترف بقضية استقلال الجزائر من الاكسبرس إلى France observateur مروراً بفكر، حيث نشر كلود بودي Claude Bourdet في جانفي 1955 "جهازكم المخبراتي في الجزائر". كما جاء على لسان سارتر: ((إن جرائم القتل التي ترتكب باسمنا نحن ينبغي علينا أن نكون متواطئين، بما أنه يبقى في وسعنا أن نوقفها)).⁽²⁰⁾

يسند خداع الحاكمين، التواطؤ الإعلامي، الذي يريد للفرنسيين جهل ما يقع في الجزائر: ((الموارية، التمويه والكذب: تلك واجبات، عملاء البلد الأصلي، تتمثل جريمتهم الوحيدة في تضليلنا)).⁽²¹⁾ يظهر ذلك، في عموميته أيضا كإشارة عن انحطاط حضاري: ((فرنسا المتحمسة والمهووسة بل المنهكة بأحلامها القديمة عن المجد، مع استشعارها لفضيحتها، تتخبط وسط كابوس غامض، لا يمكنها الانسلاخ عنه أو كشف رموزه. لذلك، فإما نتصف بالوضوح، أو الانهيار)).⁽²²⁾ يوظف الفيلسوف هذا الفعل الأخير، الذي يدحض كل تورية وتلميح، من أجل تحريض الفرنسيين ضد الوقاحة الإجرامية لمسؤولين، يقول سارتر بلسانهم: ((إن التعامل اللين باسم الصحبة، سيقود إلى إسقاط صاعقة على هؤلاء الفلاحين الوقحين: ليحترقوا بؤسا، مقابل حصول المساهمين في السويس على أرباح مساهماتهم)).⁽²³⁾

لكن العدوى لن تكفي بحدود أوروبا. حين، استشرى المرض أيضا عند الخاضعين للاستعمار: ((إن النظام الإداري الاستعماري، بمثابة عصاب نفسي، أرسى ركائزه المستعمر لدى المستعمرين وبموافقتهم)).⁽²⁴⁾ يدلي سارتر، في توطئته لمؤلف فرانز فانون. "الجنون"، الذي سيميز تصرفات اليسار الفرنسي وكذا "الفاعلين الاستعماريين"، أصاب أيضا المستعمرين. لكن هذه المرة، استحوذ عليهم وتملكهم: ((عندما، تقرؤون فرانز فانون: تدركون أنه خلال لحظة ضعف المستعمرين، يصير الجنون القاتل وعيا جمعيا لديهم)).⁽²⁵⁾

ولكي يضمن استجابتهم على منوال فانون، أحدث سارتر انقلابا قيميا: أضيف، قيمة إيجابية على "جنون" يعكسه المضطهد ضد قاهره، كي يتخلص من عبوديته، وبالتالي التسلط الاستعماري. لذا، يستخلص سارتر قائلا: ((لنعالج ذواتنا؟ نعم فالعنف، مثل حرية البطل الإغريقي "أخيل"، قد تتدخل معه الجروح التي أحدثها... إنه اللحظة الأخيرة للديالكتيك: عليكم

أن تستنكروا هذه الحروب، بل أكثر، التحلي بالجرأة كي تعلنوا تضامنكم مع المحاربين الجزائريين، لا تخافوا، اعتمدوا على المستعمرين وكذا المرتزقة : سيحفظونكم على أن تبادروا. ربما، تضطرون. أفصحوا أخيرا عن هذا العنف الجديد، الذي يبعث عندكم آثاما قديمة تستوي ثانية. لكن هذا كما نقول، تاريخ آخر. تاريخ الإنسان. الزمان يقترب. متيقن، أننا سننضم إلى الذين يصنعونه)).

لم تكن معركة سارتر فقط معركة كتابه بل معركة المثقف الملتزم التي تجسدت على كل الجبهات حيث قادته الأحداث. فقد ساهم في عدة لقاءات من أجل السلم في الجزائر،(في جوان 1960 وفي ديسمبر 1961 بروما) كما شارك في مظاهرة صامتة في أول نوفمبر 1961 المنعدة بمجازر 17 أكتوبر إلى مظاهرة 13 فيفري 1962 محتجا على القمع الدموي في مترو "شارون"، كما أدلى بشهادته في جل محاكمات (حاملو الحقائق) والمعروفة بمحاكمة شبكة جونسون، يصرح سارتر: "استعملوني كما تشاؤون" ثم أضاف اسمه إلى توقعيات ما عرف ببيان 121⁽²⁶⁾ قبل أن يطير باتجاه أمريكا اللاتينية حيث يعرف هناك احتضانهم لقضية استقلال الجزائر.

"عدموا سارتر" هي الكلمات التي هتفت بها أصوات المحاربين القدامى في مظاهرة نظمت في أكتوبر 1960. والذين سيقدمون غلى تخربت شفته في مناسبتين؛ جويلية 1961 وجانفي 1962 "أين هم المتوحشون الآن؟ أين البربرية؟ لا شيء ينقص، حتى أنغام الطبل، ومنبهات السيارات تعزف نشيد "الجزائر فرنسية" في الوقت الذي يحرق الأوروبيون المسلمين أحياء⁽²⁷⁾" تشير مقدمة سارتر في "معذبو الأرض".

خاتمة:

ظل صوت سارتر مزعجا، بالرغم من محاولة تكميمه، مثقف مخلص لمفهوم الالتزام وضع قلمه وخبرته في خدمة قضية اعتبرها عادلة. بالنسبة إليه ولجونسون تستحق قضية الجزائر الدفاع عن عدالتها، إلى غاية أن تتمحي تلك الصورة التي تشكلت عند الشعب الجزائري، والمختزلة لفرنسا إلى مجرد بلد تمارس وحداته المظلية التعذيب داخل السجون.

المصالحة الفرنسية-الجزائرية تتطلب في نظر سارتر أن يواجه الشعب الفرنسي حقيقة تاريخه في الجزائر: ((تعرفون جيدا أننا مستغلون. تعلمون جيدا أننا نهينا الذهب والمعادن ثم نفض "القارات الجديدة" وإنما حملنا كل ذلك إلى بلداننا (...)) أوروبا تحفر عن

الثروات وتعد بالحس الإنساني كل سكانها: رجل عندنا ذلك يعني تواطؤاً، لأننا استفدنا من الاستغلال الاستعماري)).⁽²⁸⁾

الهوامش:

(1) عبد المجيد عمراني: النخبة الفرنسية المثقفة والثورة الجزائرية ، مطبعة دار الشهاب بانة، الجزائر، 1995، ص.76

(2) Mohammed Harbi, « Une conscience libre », *Les Temps modernes*, Paris, octobre-décembre 1990, p. 1034.

(3) Tous publiés dans *Situations V*, Gallimard, Paris, 1964. Voir Michel Contat et Michel Rybalka, *Les Ecrits de Sartre*, Gallimard, Paris, 1970.

(4) Albert Memmi publiera *Portrait du décolonisé arabo-musulman et de quelques autres*, Gallimard, Paris, 2004.

(5) *Les Temps modernes*, juillet-août 1957 et *Situations V*, *op. cit.*, p. 51-52.

(6) « Les somnambules », *Les Temps modernes*, avril 1962, dans *Situations V*, *op. cit.*, p. 161.

(7) « Portrait du colonisé », *Situations V*, *op. cit.*, p. 56.

(8) Dans Frantz Fanon, *Les Damnés de la terre*, Maspero, coll. « Cahiers libres », Paris, 1961, p. 9-26.

(9) « Une victoire », *L'Express*, 6 mars 1958 ; dans *Situations V*, p. 86.

(10) « Vous êtes formidables », *op. cit.*, p. 57.

(11) *L'Express*, 6 mars 1958. Dans *Situations V*, p. 81.

(12) *Ibid.*, p. 80.

(13) سارتر، عارنا في الجزائر، ترجمة عايذة وسهير إدريس، دار الأدب، بيروت، 1975، ص6-61.

(14) نفس المرجع، ص، 58.

(15) « La Constitution du mépris », *L'Express*, 11 septembre 1958. Dans *Situations V*, p. 105.

(16) Aimé Césaire, *Discours sur le colonialisme*, Présence africaine, 1955, p. 11. En 1959 (15) *Situation V*, *op. cit.*, p. 192.

(17) *Ibid.*, p. 187.

(18) « Le colonialisme est un système », *op. cit.*, p. 47-48. C'est Sartre qui souligne.

(19) « Vous êtes formidables », *op. cit.*, p. 66.

(20) *Ibid.*, p. 59.

(21) *Ibid.*, p. 59.

- (22) *Ibid.*, p. 58.
- (23) « Le fantôme de Staline », *Les Temps modernes*, novembre-décembre 1956 - janvier 1957. Dans *Situations VII*, p. 153..
- (24) *Situations V*, *op. cit.*, p. 181.
- (25) *Ibid.*, p. 179.
- (26) *Ibid.*, p. 192-193.
- (27) Lire Laurent Schwartz, « Au nom de la morale et de la vérité », *Le Monde diplomatique*, septembre 2000.
- (28) *Situations V*, *op. cit.*, p. 190.
- (29) *Situations V*, *op. cit.*, p. 187.